**المحاضرة السابعة**

**المصطلحات المحورية: الحداثة**

كان مصطلح "الحداثة" وراء ما حصل لمصطلحات محورية في منظومتنا النقدية من التحريف والتغريب تضييقا مرةً وتوسيعا أخرى. فهو مصطلح لا يكاد الخطاب النقدي العربي المعاصر يتوقف عن ذكره والتمسح به. ومن الغريب أن يكون مصطلح بهذه الخطورة واهن الصلة بدلالته اللغوية، ومتناقض مع مفهومه في جوانب كثيرة.

نبدأ من أصل الدلالة اللغوية، حيث ورد في "لسان العرب"[[1]](#footnote-2) أنّ "الحدوث: نقيض القُدمة" وهو "كون شيءٍ لم يكن". و"الحديث: نقيض القديم" وهو "الجديد من الأشياء". ومُحْدَثات الأمور (في الحديث النبوي): "ما لم يكن معروفا في كتاب ولا سنة ولا إجماع". و"أخذ الأمر بحِدْثانه وحَداثته أي بأوله وابتدائه". و"حداثة السن: كناية عن الشباب وأول العمر." وورد في "المعجم العربي الأساسي" أنّ "أحدثَ الشيءَ: ابتدعه.. وأحدثَ الأمر: أوجدَه." و"حداثة: مص حدَثَ: الجِدة."[[2]](#footnote-3)

ونعطف بالدلالة الاصطلاحية القديمة لمصطلح ذي صلة هو "الحدوث"؛ حيث ورد في "التعريفات" أنه "عبارة عن وجود شيء بعد عدمه."[[3]](#footnote-4) أما "الحداثة" فلم يستعملها العرب القدامى استعمالا اصطلاحيا علميا، بل استعمالا لغويا وحسب. وعندما أراد أبو حيان التوحيدى التعبير عن تأثير الحداثة في النفوس استعمل اسم الفاعل "الحادث" فقال: "والتعجّب كله منوط بالحادث؛ وأما التعظيم والإجلال فهما لكلّ ما قَدُم."[[4]](#footnote-5)

ونستنتج من ذلك أن "الحداثة" عند العرب لا تخرج عن معاني الجدة والإيجاد والطروء، بوقوع ما لم يكن واقعا قبل، وكون ما كان من قبل في حكم العدم. وأن العرب لم يروا في هذه المعاني ما يستحق أن يرفع الحداثة إلى منزلة المصطلح الذي يدل على حركة فكرية أو أدبية أو دينية؛ فكان أقصى ما بلغوه في الموضوع أن اصطنعوا مصطلح "المُحْدَث" و"المُحْدَثين" لمقابلته بـ"القديم" و"القدماء"، في سياق الجدل بين مذهب كل طرف في بناء الشعر. ولم يكن القصد بالحداثة هنا سوى المعنى الزمني؛ بدليل قول ابن رشيق: "كل قديم من الشعراء فهو مُحْدَثٌ في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله."[[5]](#footnote-6)

لم تتحول "الحداثة" إلى مصطلح له شأنٌ أيُّ شأنٍ إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. عندما أخذت وفود النظريات والمدارس والمذاهب والمناهج والمفاهيم والمعايير والمصطلحات الغربية تتهاطل على الثقافة العربية، فيقبل عليها المتعطشون إلى "التنوير" و"التطوير" الغربيين أيَّما إقبال. عندها كانت "الحداثة" قد بلغت أشدها في الغرب، وحصل لها من التقلب في تحولات الحضارة الغربية ما حصل؛ فأُشربت من المعاني وحُمِّلت من المفاهيم ما لا قِبل لدلالتها اللغوية بحمله، فكثرت تعريفاتها واضطربت، إذ "عرّفها بعضهم بكونها حقبة تاريخية متواصلة ابتدأت في أقطار الغرب، ثم انتقلت آثارها إلى العالم بأسره، مع اختلافهم في تحديد مدة هذه الحقبة (...) وعرّف بعضهم الآخر الحداثة بصفات طَبَعت بقوة عطاء هذه الحقبة، مع اختلافهم في التعبير عن هذه الصفات وعن أسبابها ونتائجها؛ فمن قائل إن الحداثة هي "النهوض بأسباب العقل والتقدم والتحرر"؛ ومن قائل إنها ممارسة السيادات الثلاث عن طريق العلم والتقنية: السيادة على الطبيعة والسيادة على المجتمع والسيادة على الذات"؛ بل نجد منهم من يقصُرُها على صفة واحدة، فيقول إنها "قطْع الصلة بالتراث" أو إنها "طَلَب الجديد" أو إنها "محو القدسية من العالم" أو "إنها "العقلنة" أو إنها "الديمقراطية" أو إنها "حقوق الإنسان" أو "قطع الصلة بالدين" أو إنها "العلمانية"؛ وأمام هذا التعدد والتردد في تعاريف الحداثة، لا عجب أن يقال كذلك إنها "مشروع غير مكتمل"."[[6]](#footnote-7)

هذه هي مفاهيم "الحداثة" التي جعل منها الغرب فلسفة ومنهجا في الحياة يزعم أنه يخالف ما كان سائدا قبل نهضته الحضارية التي ولَدت له ثوراتٍ عديدةً غيّرت وجه الحياة ووجه العالم تغييرا جذريا: ثورة دينية، وأخرى علمية، وثالثة صناعية، ورابعة اجتماعية، وخامسة فنية.. جعلت من الغرب عالما جديدا لا عهد للتاريخ به، يعج حركة وإبداعا وتطورا واختراعا وثورة وتمردا، وتجاوزا مستمرا لما استقر من أنماط الحياة في مختلف حقول المعرفة والنشاط الإنساني.

هذه الحالة التاريخية المتصلة بتطور الحضارة الغربية هي التي أطلق عليها الغرب مصطلحي "Modernité" و"Modernisme" فعنى بالأولى الخاصية لكل ما هو حديث، في مجال الفن خاصة. وبالثانية الميل إلى خاصية الحداثة (الجدة) والبحث عنها. وأضاف إلى الثانية الإشارة إلى حركة مسيحية مطالبة بتحديث المعتقدات والعقائد التقليدية بما يتناسب مع التفسيرات الحديثة للكتاب المقدس[[7]](#footnote-8).

هذان المصطلحان الغربيان وفدا إلى الثقافة العربية فترجم كلاهما إلى "الحداثة". والذي يعنينا من المصطلحين، في هذا المقام، هو مقابل المصطلح الغربي الثاني "Modernisme". فكيف عرّفه العرب؟ وهل هو متجانس مع أصل الدلالة اللغوية؟

يقول محمد أركون: "الحداثة هي موقف للروح أمام مشكلة المعرفة (…) أما التحديث فهو مجرد إدخال للتقنية والمخترعات الحديثة."[[8]](#footnote-9) ويقول هشام شرابي: "يتجسد معنى الحداثة بالنسبة لنا باتجاهين مترابطين: الاتجاه العقلاني والاتجاه العلماني: عقلنة الحضارة وعلمنة المجتمع."[[9]](#footnote-10)

إن مصطلح "الحداثة" في النقد العربي المعاصر لا يخرج عن هذا الإطار العام لمفهوم الحداثة عند الغرب بعدّها انتقالا من مرحلة إلى مرحلة: من مرحلة كانت فيها سلطة المعرفة والحكم للنقل والكنيسة، إلى مرحلة صارت السلطة فيها للعقل والعلم، وانعزل فيها الدين عن المجتمع والسياسة. ومن مرحلة كان فيها للأخلاق والتقاليد سلطة على المشاعر والسلوك الاجتماعي، إلى مرحلة صار فيها الفرد حرا في أن يأتي ما يشاء سوى أن يخالف قانون الدولة الوضعي. ومن مرحلة كان فيها للجمال مقاييس وللأدب والفن وظائف وأصول، قد يبالغ في ضبطها وتقنينها والدعوة إلى الالتزام بها، إلى مرحلة لا تؤمن بالثوابت والمقاييس والوظائف والأصول، بل تؤمن بالحرية والتميز والخرق والتجاوز والتجريب والتمرد على السائد. هذا هو مفهوم "الحداثة" عند الغرب، وهذا هو مفهومها عند دعاتها من العرب كذلك؛ فهل هو مفهوم متجانس مع دلالتها اللغوية.

عندما يُربَط مفهوم "الحداثة" بالميل إلى الجدّة والبحث عنها فهذا واضح الصلة بالدلالة المعجمية للحداثة. أما عندما يُربط هذا المفهوم بالعقلانية والعلمانية وفصل الدين عن الحياة والتمرد على الأصول والمقاييس فهذه مفاهيمُ لا صلة لها بمعنى الحداثة. لأن العقلانية ليست منهجا جديدا في المعرفة والسلوك بل هي منهج قديم موغل في القدم، وقد عرفته الحضارة الإسلامية أحسن المعرفة. ولأن فصل الدين عن الحياة كان موجودا في حضارات سابقة، ولو بغير الصورة التي عرفتها الحداثة الغربية انتقاما من ظلم الكنيسة. ولأن التمرد على الأصول والمقاييس هو نزوة عابرة لا تُبى بها حضارة ولا تستقيم بها حياة، والحداثة نفسها تناقضها حين تضع المناهج والنظريات تحاول بها أن تُدرك خصائص الظواهر الفنية والأدبية وتضع لها القوانين والمقاييس؛ فكيف للخصائص أن تُعرف وللقوانين أن توضع أو تُكتشف لو كان الأمر يقبل أن يخضع للتجاوز المستمر والتمرد الدائم؟

حين يقول أدونيس، مثلا، إن حركة الإلحاد هي أول شكل للحداثة في الثقافة العربية[[10]](#footnote-11)، وإن عمر ابن ربيعة وبشار بن برد وأبا نواس كانوا حداثيين لأنهم تمردوا على المحرم والمقدس[[11]](#footnote-12)، فإن سؤالنا: أين الحداثة في ذلك؟ أين الجدة في الإلحاد وعصيان الله وانتهاك المحرم؟ أليس كل ذلك قديما قِدم الإنسانية؟

إن مفهوم "الحداثة" عند الحداثيين العرب، هو، في واقع الأمر، ودون مواربة ولف، الصورة التي صار عليها العالم بفعل إنجازات الحضارة الغربية وتحولاتها، بغض النظر عن مدى جدّة هذه الصورة أو قدامتها. ذلك ما نفهمه من قول كمال أبو ديب:

"الحداثة انقطاع معرفي: ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث؛ في كتب ابن خلدون الأربعة، أو في اللغة المؤسساتية، والفكر الديني، وكون الله مركز الوجود، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني، وكون الفن محاكاة للعالم الخارجي. الحداثة انقطاع؛ لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود؛ وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني؛ وكون الداخل مصدر المعرفة اليقينية –إذا كانت ثمة معرفة يقينية؛ وكون الفن خلقا لواقع جديد."[[12]](#footnote-13)

"الحداثة" وفق هذا التحديد هي أن ننقطع عن تراثنا القديم لنحل في التراث الحديث للغرب. أن نقطع صلتنا بالدين كما قطعها الغرب، ونُحِلّ الإنسان محل الله في مركز الوجود كما فعل الغرب، وأن نتخلى عن جعل الغيب مصدرا للمعرفة ونحصر المصدرية في داخل الإنسان كما حصرها الغرب، وأن نجعل الشعب موضوع الفن لا السلطة كما فعل الغرب. هي باختصار: أن نكفّ عن أن نكون نحن كي يتسنى لنا أن نكون الآخر/الغرب. وفي كل هذا لا علاقة لمصطلح "الحداثة" بالحداثة؛ لأن قطع الصلة بالدين قديم، وعدم الاعتراف بسيادة الله على الوجود قديم، وعدم أخذ المعرفة عن الله قديم.. وحتى لو افترضنا أنه جاء مع الحضارة الغربية، فقد صارت الحضارة الغربية نفسها قديمة بعد أن مرّ على ازدهارها عقود بل قرون.

وإذا تحولنا إلى الحداثة في الأدب والنقد نجد الإشكال نفسه يُحرج مفهوم مصطلح "الحداثة" أيما إحراج: ما هي سمات الأدب الحداثي والنقد الحداثي؟ إذا كان الغموض، مثلا، سمة من سمات الشعر الحداثي فإنه موجود منذ القدم ولا حداثة فيه، وإذا افترضنا أنه ابن الحداثة الغربية فقد صار قديما بعد مرور الزمان. وإذا كانت "العلمية" و"التاريخانية" و"النصية"، مثلا، هي سمات لمناهج النقد الحداثي، فإن هذه السمات قديمة عرفها النقد العربي القديم بعض المعرفة، وإذا افترضنا أنها بنت الحداثة الغربية فقد مرّ على هذه الحداثة عقود وقرون. فما الحاجة إلى أن يسمى كل ذلك حداثة وكل حديث اليوم يصير غدا أو في العام المقبل أو في العقد الآتي قديما لا صلة له بالحداثة؟

الحاجة هي البريق الذي يجتذب به مصطلح "الحداثة" من هم هدفٌ لهيمنة الغرب: "الحداثة" هي التجديد والتطلع والحركة والتدفق والحرية والمستقبل والبهجة والاكتشاف: هي الحياة. وغيرها هو الجمود والتبلد والتخلف والتقيد والجهل والبداوة والبؤس: هو الموت. و"الحداثة" هي صورة العالم كما صنعه ويصنعه الغرب، ولن تكون حداثيا حتى توافق على كل ملامح هذه الصورة، وتنتقل من مشهد إلى مشهد يناقضه، وتظل راكبا موجة الريح وهي تضرب في كل اتجاه؛ بعضها يقود إلى البناء والحياة، وبعضها الآخر يقود إلى الهدم والموت.

هل تستطيع أن تكون حداثيا وأنت تؤمن بثوابت القيم والأخلاق، وتحترم المقدس ولا تنتهك المحرّم، وتعتقد أن الله خلق الكون ليعبده الناس؛ فهذه الدنيا مجرد طريق إلى الآخرة، وأن الدين يمكن أن يتوافق مع العلم ويتصل بالحياة إذا كان من عند الله لا صنع البشر؟ لا. لن يسمح لك مفهوم الحداثة بذلك ولو كنت ممن يحبون الجديد في الأشكال والفنون والأوضاع، وتجتهد في أن تكتشف وتبدع وتتميز ما استطعت.

شرط الحداثة في المفهوم الغربي الأصيل والمفهوم العربي المستورد هو التحرر من كل سلطة ويقين، بما في ذلك، بل على رأس ذلك سلطة الله التي أداتها الوحي أو المعرفة الغيبية. وهو شرط لا علاقة له بالدلالة اللغوية للحداثة، ولكن بالشروط التاريخية للحضارة الغربية.

من الطريف، في هذا السياق، أن نجد فيلسوفا عربيا معاصرا كبيرا، يتمرد على هذا المفهوم السائد لمصطلح "الحداثة" ولا يقدم على التمرد على المصطلح ذاته. إن لهذا المصطلح هيمنة وسطوة؛ فمن يقدر أن يتمرد عليه؟ الفيلسوف الكبير هو طه عبد الرحمن؛ فقد قدم في كتابه "روح الحداثة" تصورا فذا لمفهوم "الحداثة" يفرق فيه بين "واقع" الحداثة الغربية و"روح" الحداثة المطلقة، ليمكّن الإسلام من تأسيس حداثته الخاصة دون تعارض مع مفهوم "الحداثة". تصورَ طه للحداثة روحا قوامها ثلاثة مبادئ، هي: الرشد، والنقد، والعموم. فبالرشد يتحرر الإنسان من الوصاية على فكره واختياره، وبالنقد يحرر فكره من سلطة التقليد والتسليم لما هو موروث، وبالعموم يعمم المبدأين على الحياة كلها وعلى العالم بأسره[[13]](#footnote-14). وبهذا التصور أمكنه أن يفك مفهوم "الحداثة" عن ارتباطه الحتمي بالحضارة الغربية، ويجعله خاصية جوهرية كامنة في جميع الحضارات الكبيرة، خصوصا في الحضارة الإسلامية، وأن يتهم الحداثة الغربية نفسها بأنها لم تقدّم صورة مثالية لروح الحداثة، ويجزم أن الإسلام هو القادر على تقديم هذه الصورة[[14]](#footnote-15). ونحن موافقوه في كل ما قال ومعحبون به غاية الإعجاب، ولكنا نخالفه في شأن واحد هو شأن المصطلح: ولِمَ نصطلح على هذه المبادئ بمصطلح "الحداثة"؟ ما علاقة الحداثة، لغويا، بالرشد والنقد والعموم؟ وما دامت هذه المبادئ قد تجسّدت أحسن تجسد لها في تاريخ الحضارة الإسلامية، وهي قديمة، فلِمَ نربطها بالحداثة؟ أما كان جديرا أن تُسمى هذه الروح "روح الحضارة" لا "روح الحداثة"؟ بلى. ذلك ما نراه، ونرى أن مصطلح "الحداثة" أُلبِسَ خطأً، أو تلبيساً وإغراءً مفهوم "مقوّمات الحضارة الغربية"؛ فهو لذلك لا يعنينا، وأحسب أن إطلاقه بهذا المفهوم في خطابنا النقدي والثقافي من أكبر الأخطاء العلمية والمنهجية.

1. ابن منظور، لسان العرب، مج2، ص796-797، مادة (حدث). [↑](#footnote-ref-2)
2. المعجم العربي الأساسي، ص295-296. [↑](#footnote-ref-3)
3. الجرجاني، التعريفات، ص72. [↑](#footnote-ref-4)
4. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، 1/24. [↑](#footnote-ref-5)
5. ابن رشيق، العمدة، 1/90. [↑](#footnote-ref-6)
6. طه عبد الرحمن، روح الحداثة- المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص23. [↑](#footnote-ref-7)
7. ينظر: "modernité" و"modernisme" في:

   dicorobert Inc; Montréal Canada 1993 , Le petit Robert [↑](#footnote-ref-8)
8. الإسلام والحداثة، محمد أركون، ضمن كتاب "الإسلام والحداثة"، ندوة مجلة مواقف، دار الساقي، لندن، ط1، 1990 ، ص355. [↑](#footnote-ref-9)
9. معنى الحداثة، هشام شرابي، ضمن كتاب "الإسلام والحداثة"، ص360. [↑](#footnote-ref-10)
10. ينظر: أدونيس، الثابت والمتحول، دار العودة، بيروت، ط4، 1983، ج1، ص90. [↑](#footnote-ref-11)
11. ينظر المرجع نفسه، ص216. [↑](#footnote-ref-12)
12. كمال أبو ديب، الحداثة، السلطة، النص، (مجلة فصول: المجلد 4، عدد 3، 1984م، ص37). [↑](#footnote-ref-13)
13. ينظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص24. [↑](#footnote-ref-14)
14. ينظر المرجع نفسه، ص18. [↑](#footnote-ref-15)